من فنـــــون الشـــــعراء

بقلم فضيلة الأستاذ أحمد الشرباصي المدرس بالأزهر الشريف

كثيراً ما يلجأ جمهور الأدباء — ولا سيما الشاعر منهم — إلى الحيلة تخرجه من مأزق حرج أو مجال ضيق ، وكثيراً ما تلمح فى اصطياد تلك الحيلة وتسويغها براعة رائعة وخلابة خادعة ، تشهد لصاحبها بطول الباع واليد الصناع ، وتدل على اقتدار فى التخلص من الأزمات الفنية والمضايق التصويرية ، فقد يتخيل الأديب فى قصته أو الشاعر فى ملحمته صوراً تتسلسل بها حوادث ، ويحاول الأديب أو الشاعر أن يضفى على تخيلاته أثواب الواقع المألوف والممكن المعروف ، ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وفجأة يجد نفسه أمام عقبة تصطدم مع الهدف الأسامى الذى يهدف إليه من قصته أو ملحمته ، فلو سارت القصة سيراً مألوفا لما وصل صاحبها إلى النتيجة التى أرادها ومهد لها وسعى إليها ، وهنا إما أن ينحرف عن هدفه الأول ، وإما أن يقف ليصطنع مايقضى على تلك العقبة ، ويمهد أمامه الطريق .

انظر على سبيل المثال إلى أمير الشعراء شوقى فى مسرحيته الباقية « مجنون ليلى » تجد أن هدفه الأسامى فى هذه المسرحية هو أن يبين لك سلطان الهوى العذرى المشبوب على العاشق المضنى ، وأن يرسم أمامك لقيس بن الملوح صورة تتبين منها أن قيساً قد خبله هواه واستبد به العشق ، فما ترك له من سبيل إلى النجاة أو الشفاء ، وقد أصابه الجنون فما يليق أن يعد فى العقلاء ، وها هو ذا شوقى يعرض لنا قيسا وقد صرعه الوجد والهوى ، فما يفيق رغم الصياح والهتاف ، ويقول عنه ابن عوف لزياد راوية قيس :

زياد انظر فما انفك ... صريع الوجد والذكرى
كما مر بنا الركب الـ ... حسينى به مرا
فلم يشغل له بالا ... ولم يوقظ له فكرا

فيجيبه زياد :

رويدا سيدى مهلا ... ولا تستغرب الأمرا
لقد سقناه بالأمس ... فحج الكعبة الغرا
فلما لمس الركن ... ومست يده السترا
وقلنا الآن من ليلى ... ومن فتنتها يبرا
سمعناه يناجى الله ... من ساحته الكبرى

ابن عوف : وماذا قال ؟

زياد :

ما تاب ... من العشق ولا استبرا
ولكن قال : يا رب ... ملكت الخير والشرا
فهات الضر إن كان ... هوى ليلى هو الضرا
وإن كان هو السحر ... فلا تبطل لها سحرا
ويا رب هب السلوى ... لغيرى وهب الصبرا
وهب لى موتة المضنى ... بها لا ميتة أخرى

وفى مكان آخر نجد ليلى — وهى أعلم القوم بقيس — تقول عنه :

وقيس ذو جنة وإن زعموا
جنونه مدعى ومصطنعا
تحير الناس فى جنون فتى
لا عقل إلا بشمره ولعا

وبعد ذلك بقليل تتحدث عن دائها ودائه فتقول :

ويح قيس وويح لى أى ثأر
للمقادير عند قيس وعندي ؟
أتعب الحى داء قيس ودائى
وتعايى الدواء كهان نجد

لا الحواميم تصرف الجن عنا
حين تتلى ، ولا رقى السحر تجدى
أبقيس وبى هـــوى عبقرى
يسلب العقل من ذويه ويردى
علة البيـــد من قديم وداء
ضـــاع فيه الرقى وحار المفدى

إذن فالهدف الأساسى — أومن الأهداف الأساسية فى المسرحية على أقل تقدير — أن يصور لنا شوقى هذا السلطان القوى العارم للحب الدفين المكين على نفوس المحبين الصادقين ، وتتسلسل مناظر الرواية ومواقفها لتؤكد هذا المعنى ، فتارة نرى قيسا هائما فى الصحارى والفلوات ، وتارة يسامر النجوم والكواكب ، وتارة تحترق يده بالنار وهو مع ليـــلى فلا يشعر ، وتارة يسائل الليل أو الريح عن حبيبته ، وتارة يتحدث عن شيطانه الأموى الذى يتحكم فيه ويوحى إليه بشعر الهوى والصبابة ، إلى غير ذلك من أمارات وعلامات ...

ولـكن ها هو ذا شوقى رحمه الله يلقى فى طريقه المسلسل عقبة تعترض هدفه ، أو قل إن الشاعر البارع الصناع قد أوجد هـذه العقبة وافتعلتها ، ليحاول بعد اصطناعها التغلب عليها ، فيفلح ، فيرينا من نفسه اقتدارا فنزيد له إجلالا وبه إعجابا ؛ « أنتم النـاس أيها الشعراء » ! . . .

هذا هو الفصل الثانى من المسرحية . . . وهذه بداءته . . . « طريق من طرق القوافل بين نجد ويثرب على مقربة من حى بنى عامر ، حيث تبدو مضارب هذا الحى على مدى البصر وعلى سفح جبل التوباد ؛ قيس وزياد جلوس إلى جذع نخلة ، يستشرفان شبحا يسير نحوهما » . . . إنها بلهاء جارية قيس ، جاءت تحمل إليه دواء يستشفى به ، ممثلا فى شاة مذبوحة ، فيسأل قيس صديقه : « زياد ماتلك ؟ من الجويرية ؟ أتلك بلهاء » ؟ فيجيبه زياد : « أجل قيس هيه » . وتظهر بلهاء وعلى رأسها قصعة فيها الدواء المرجو والعلاج المأمول ، فيها الشاة الحنيذة ، فيسأل قيس : « بلهاء كيف الحى كيف أميه ؟ » .. إنه يسأل عن أمه العزيزة الغالية ، فلا شك أنه يوقرها ويجلها ويرعاها ، ويحفظ طاعتها ويدين لها بالولاء ، ويقابل كل ما تفعله أوتقوله بالطاعة والقبول ، ولذلك تضع بلهاء القصعة بين يديه قائلة : « تسأل عنك كما سألت » ولـكن قيساً تبدو عليه كراهة للطعام وعزوف عنه فيقول له رفيقه زياد : « بالله قيس إلا أكلت » فيشتد عزوف قيس حتى تعجب الفتاة فتقول : « زياد ، ما ذاق قيس ولا هما » .

وهنا يحاول زياد أن يثير فى قيس عاطفة البنوة الوفية للأمومة الغالية الرحيمة فيقول له :

طبخ يد الأم يا قيس ، ذق مما
الأم يا قيس لا تطبخ السما !

وما أجمل قوله : « لا تطبخ السما » ، وما أوجع ما فيه من تقريع وتوبيخ ... ثم ينزع زياد غطاء القصعة ليثير فتارها ، ويغرى قيسا بالميل إليها ، فيروعه أن يرى فيها ذبيحة من أطيب الذبائح ، فينادى قيسا : « تعال تأمل قيس تلك ذبيحة » فيجيب قيس : « عسى اليوم نحر » ولـكن لا نحر ولا أضحى ، وإنما هى لوثة الحب أذهلت قيسا عما حوله ، فيجيبه زياد : « أين نحن من الأضحى » ؟ . .

ويرى قيس لحم الذبيحة ، ويتذكر الأنامل العزيزة التى قامت على طبخها وإعدادها ، أنامل الأم الرءوم التى لا تهون ، فيحن إليها ، ويشعر بفداحة مصابها فيه وفى جنونه فيقول :

أرى صنع أمى يا زياد ، فديتها
بروحى وإن حملتها الهم والبرحا
ستخبرنا البلهاء . . . . . .

ويلوح لزياد بريق من أمل فى لين قيس وخضوعه فيصرخ فى الفتاة قائلا :

. . . . . بلهاء بينى
ولا تـكتمى عنا الحديث ولا الشرحا

وهنا تقص الفتاة قصة الشاة ، وتبين كيف تعب القوم فى البحث عن دواء لقيس من دائه ، وكيف جاء العراف وهو من هو عند العرب فى الفهم والخبرة ، وسأل عن قيس وبحث عن أمره ، ووصف العلاج الذى لا يخيب ، والدواء الذى لا يفشل ، وكأنها تريد أن تقول لقيس : ليس هذا طعاما من الأم فحسب ، ولا نفحة

من حمى الأهل فقط ، ولكنه فوق ذلك دواء من طبيب خبير ، وعلاج من نظامى بارع . . . إنها تجيب فتقول :

لقد مر عراف اليمامة بالحمى
فما راعنا إلا زيارته صبحا
طوى الحى حتى جاء عن قيس سائلا
وأظهر ما شاء المودة والنصحا
ولاحت له شاة جثوم بموضع
تخيلها ظلا من الليل أو جنحا
فقال اذبحوا هاتيك فالخير عندها
فقام إليها يافع يحسن الذبحا
فقال انزعوا من جثة الشاة قلبها
فلم نال قلب الشاة نزعا ولا طرحا
فلما شووناها رقى بعزائم
عليها ، وألقى فى جوانبها الملحا
وقال اطلبوا قيسا فهذا دواؤه
كأنى به لما تناوله صحا

إنها فرصة يجب ألا تضيع ، وإنه العراف الجليل الذى يجب أن يطاع ، وإلا فقيس رجل يتعنت ويتمرد ، هكذا يقضى تسلسل الحوادث وطبيعة الأشياء ، ولذلك يعجل رفيقه زياد فيقول لقيس :

تعلل قيس بالشاة عساها تذهب الحبا
فما العراف بالمجهول لا علما ولا طبا
ولم تعلم عليه البيد تدجيلا ولا كذبا
طبيب جرب اليائس فى الصحراء والرطبا
فذق قيس ولا ترتب بما قال وما نبا
وتلك الأم يا قيس أطعها تطع الربا

ماذا يصنع قيس هنا إذن ؟ . . لقد أحرجته الفتاة بقصتها المؤثرة ، وأحرجه زياد بإغرائه العاتب ، فلابد له إذن من الاستجابة ولو فى بطء وتحكم قليل . . . وهذا ما كان . . . قبل قيس أن يأكل من الشاة ، ولكنه لا يأكلها كلها ولا أكثرها ، بل إنه يكتفى بجزء صغير منها وإن كان جليلا ، إنه يريد قلب الشاة فقط ، ولا شىء أكثر من القلب ، ولذلك يقول :

زياد اسمع وكن عونى وخل اللوم والعتبا
إذا ما لم يكن بد فإنى آكل القلبا

القلب ؟ . . . إنه شىء حاضر ويسير ، ولا بد أنه موجود فى الشاة ، فمن ذا الذى يجرؤ على أن يقدم شاة لعزيزه وينزع منها أغلاها وهو الفؤاد ؟ . . . لذلك يصرخ زياد فى الفتاة :

قيس يبغى القلب يا بلـ ـهاء أين القلب أينا ؟

وتفرح بلهاء لاستجابة سيدها وقرب خلاصه من دائه فتقول :

هو عندى ويسير ما اشتهى قيس علينا
هو فى الشاة . . .

فيأمرها زياد قائلا : « هلمى . أخرجى القلب إلينا » . .

ولكن — وآه من لكن هذه دائما — . . . ولكن إذا ظهر القلب فقد برئ قيس المريض ، وبطل السحر والساحر ، وضاع الهدف الذى يرمى إليه الشاعر ، وهو الإبقاء على تصوير قيس فى صورة المجنون بحبه الذى لا يقدر على البرء منه ، بل ولا يريد البرء منه ، وإذن فيجب أن يحتال شوقى هنا فيبرع فى الاحتيال ، ويصطنع فيجيد فى الاصطناع ، ويخرج من المأزق الحرج فيحسن الخروج ، ويفجأ القارىء بعد هذه المحاورة الطويلة التى ظنها ستصل إلى نتيجة حاسمة بما لا ينتظره وبما لا يكون فى الحسبان . . . كيف يحتال إذن ؟ . . فليجعل بلهاء تبحث عن القلب فى الشاة واثقة من وجوده مؤمنة بحضوره ، فرحة بقرب الفرج وذهاب الألم ، . . . ثم فليفاجئنا ونحن فى حرارة الشوق ولهفة الحنين إلى معرفة النتيجة بأن الفتاة قد نسيت القلب ، لا بل نزعته من الشاة بيدها قبل حضورها ، فتقول :

القلب ؟ . . أين القلب ؟ أين يا ترى وضعته ؟
يا ويح لى نسيت أنى بيدى نزعته !

وهنا خاب المسعى وفشل الأمل وضاع الرجاء ، وفترت همة زياد وبلهاء ، واعتز قيس بموقفه بعد أن أطالوا عتابه ، فهتف فيهم بالبيت السائر :

وشاة بلا قلب يداووننى بها

وكيف يداوى القلب من لا له قلب ؟

وهكذا استطاع شوقى البارع أن يفتن فى اصطناع هذا الحوار الجميل ، وأن يتأدى به إلى تلك العقبة الكؤود التى حسبناها ستهدم الهدف ، ثم فجأة يبرع فى الخلاص منها بتلك الحيلة ، حيلة القلب الضائع ! . . .

حقا ، ما أبرع الموهوبين من الشعراء ! ! . . .

أحمد الشرباصى
المدرس بالأزهر الشريف